

جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

تلا عن كتاب حضارة الاسلام في دار السلام تأليف جميل افندي غزله مدور

المنتظف * هذا كتابٌ بليغ العبارة رقيق الالفاظ طليُّ البحث جليل العوائد ألفه خضرة
الكتاب البليغ جميل افندي غزله مدور من كتب اشهر المؤلفين واصحهم رواية كما ترى في
حواشيه ووصف فيه مدن الاسلام ايام بني العباس وما يتطوي تحته من المدن والمباني والعوائد
والاخلاق والعلوم والصنائع والجاه والترف وما شاكل واجاد في وصف ذلك غاية الاجادة حتى
يخيل للطالع انه ساكن اهل تلك الايام وعاشهم . والكتاب المذكور يُطبع الآن في مطبعة
المنتظف طبعا متفقا بحرف كبير واضح كحرف المتن سهلا للطالعة قال المؤلف لسان راويته:
ولما نجولت في المدينة وجدتها على اعظم ما كنت اعهدها من اتساع العمارة .
فاكفي اهلها الموسرين ما رفعوا في مدينة المنصور من المباني المشرقة حتى انهم
توسعوا الى سكي الجانب الشرقي المعروف بالرصافة^(١) فبنوا فيه القصور الزفيعه
والمنازل الرحبة المزخرفة وغرسوا في جنانهم الاشجار والرياحين التي يجري من
تحته الماء واتخذوا لهم الاسواق والمرافق والحمامات والجوامع وتوجهت عناية
البرامكة الى اقامة المكاتب فيها والحلقات ومنازل الجند وماوى المرضى ومجالس
القضاة وغرف الشرطة وغير ذلك حتى اصبحت الزوراء بجانبها كأنها البلد
العتيق فجمع محاسنه في جزء من محاسن المدينة التي احدثت في جوارها

ولقد اُكبرت من الزوراء بلوغ العمران فيها بما رأيت من ازدهام الناس
فيها وموجهم كالبحر في ارجائها . يقال ان عددهم يزيد عن الف وخمسة
الف^(٢) وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدر نصفه في مدينة من العالم قط فانما يدل
اجتماع الناس الى هذا الدر العظيم على أن ليس في المدن ائمن ولا ايسر^(٣) من

(١) ابن الاثير ٦ * ١٥ وخلصان ٢ * ٢٤٢ وتقوم ٢٠٢ (٢) افندي (٣) ابن

الموضع الذي يتكوفون فيه تكوف الرمال . ثم أكثرت بلوغ النعم من أهلها
 بما رأيت من توفر أرباب الغايات عندهم من الفنون^(١) التي لا تقتصر الحاجة
 منها على ضرورة العمران وإنما تتوسع المنفعة من صناعتها ومصنوعاتها إلى
 مطالب الترف الذي يقع في الامم عند استفحال ملكهم فصارت بغداد بيضة
 الملك^(٢) ومعدن الظرائف^(٣) وزينة العالم بما نجد في أهلها من اتساع الحضارة
 عندهم وما يبرى على مبانها من الإشراف^(٤) الذي تنزه عن الملل فكأنني بها قد
 محت ذكر بابل في الحسن المشرق والجمال الموثق

ولقد يعذر عليّ بهذا القلم الذي لا مادة فيه أن اصف مفاخر المدينة التي
 أطل ما تصيبه من الشرف أنها تزهر بهاء السلطان وتضم إليها عيون الاعيان
 الذين إذا لقي السائر منهم جماعة في الطريق لم يفتن لهم من حيث الكثرة
 مع أن أفلم في الثروة والجاه يعذر على أكبر المدن أن تلقى سكانها وتسع جنده
 وعاشيته^(٥) والطامعين اليه من كافة الوجوه . وهذا دليل على عظمة هذه المدينة
 وبلوغ العمران منها فلقد يثني أهل النعمة فيها بالغلان^(٦) والحاشية إلى عدد بيوتهم
 السامع بعيداً عن الصدق^(٧) فشهدت في محلة العنابية^(٨) أميراً قد ركب في مئة
 فارس وأحرق يد الغلمان حتى ملأوا الطريق وسدوا السبيل على الناس وكلمهم
 في أمي زير واجل لباس وشاهدت في مشرع القصب على دجلة^(٩) فتى من
 أولاد النعمة قد سار بركب عظيم^(١٠) من الخيل والرّجل كأنني به قبصر على

(١) ياقوت ٦٨٥ * ١ (٢) ابن خلكان ٧٢٨ * ١ (٣) القزويني (٤) الشيخ
 بن خاقان ٢٦ (٥) العقد ٤٢٢ * ٢ (٦) الخافي ٥ * ٨٤ و ٤ * ١٠٤ والعقد
 (٧) ابن الاثير ١٤١ * ١ و ٢٢١ (٨) ابن خلكان ٧٤١ * ١ (٩) ابن خلكان ٧٩ * ١
 (١٠) المنتظر ٦٥ * ١

مركبه او كسرى في جلال موكبه وكت اشاهد كثيراً من الامراء الذين اذا ركبوا
 بمواليهم واهل بيوتهم ظننت ان الجند يزحف في اسواق المدينة لشدة سوادهم
 وانما كان مصدر هذا الترف من دور الرشيد حين صارت اليه الخلافة
 وهو الذي ألبس الدنيا جالاً بملكه لم يسمع عن الملوك قط من كان أسخ منه
 يبذل المال^(١) لانه بلغ من الاسراف^(٢) الى ما لم يبلغه الاكاسرة ولا القياصرة قبلة
 في تذييرهم المفرط^(٣) فهو ينفق على طعامه في كل يوم عشرة آلاف درهم^(٤) وربما
 اتخذ الطباخون له أكثر من ثلاثين لوتاً من الطعام^(٥) اخبرني أبو يوسف انه
 لما بنى بزيدة بنت جعفر اتخذ ولية لم يتخذ مثلها في الاسلام^(٦) وجعل الهبات
 فيها على الناس غير محصورة حتى انه كان يهب أو افي الذهب مملوءة بالفضة
 وأواني الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر^(٧) وبلغ جملة المنفق
 من بيت المال خمسة وخمسين الف الف درهم وأمر بزيدة ان تجلي في درع من
 الدر لم يقدر احد على تقويمه بثمن وغالى في تزيينها بالحلى حتى انها ما قدرت على
 المشي لكثرة ما كان عليها من الجواهر^(٨) وأمر بان يتخذ الطباخون من الوان
 الطعام والحلوى ما لم يقدر احد على احصائه ف قيل ان الخطب الذي احرقوه
 حويل الميم على خمسمئة بغل^(٩). وهذا شيء من الاسراف لم يسبق اليه اكاسرة
 الفرس ولا قياصرة الروم ولا صبية الامويين مع ما نقلوا فيه من الاموال الجسام

(١) الفخري ٢٤٠ (٢) الخبث ٢ * ٢٦١ (٣) وجدت في بعض الكتب ان
 المأمون اتخذ في قصوره ثلاثة آلاف وغاشية بساط منها الف ومائتان مزركنة بالذهب واتخذ
 سبعة حصي منهم ثلاثمائة سود فان صحت الرواية فليس لذكر ترف الفرس والروم موضع في
 جانب العظيم من ترف العباسيين (٤) المسعودي ٢ * ٢٤٢ (٥) المسطر ٢ * ٢٤١
 (٦) العقد الفريد والسيوطي (٧) تزيين الاسواق ١١٧ (٨) الف ليلة وليلة ١ * ٨٤
 (٩) المقدمة ١٥١

ومن جمال دورو ان زبيدة زوجها تصنع اعمالاً يتباهى بها الملوك . فمن ذلك انها صنعت بساطاً من الدياتج على صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب واعينها من يواقيت وجواهر^(١) وانققت عليه نحواً من الف الف دينار واتخذت الآلة من الذهب المرصع بالجواهر وامرت بان يصنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ الثوب الذي اتخذها من الوشي خمسين الف دينار . واتخذت القباب من الفضة والابنوس والصنديل وكلايهما من الذهب الملبس بالوشي والدياتج والسمور وانواع الحرير . واتخذت شمع العنبر وصنعت لها خناً مرصعاً بالجواهر واتخذت الشاكرية من الخدم^(٢) يختلفون على الدواب في جهاتها ويذهبون في حوائجها ورسائلها وهذا من الاعمال التي تدور في سير الملوك تعظيماً لما يصير اليهم من النعمة ويتقربون فيه من الطيبات

ولا يرى مثل هذا الترف في غير دور الخلافة الا في قصور البرامكة الامجاد واليهم ينتهي جمال الملوك واشراقتهم فاذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يروهم اكثر مما يجلسون للخلفاء ولقد رأيت بعض صبيتهم بباب محمول^(٣) من الجانب الغربي^(٤) في موكب عظيم وقد طرز في ملبسه وبين يديه الجند والفرسان والحفد والاعوان والرقيق والغلمان وهو واضع طرفه على معرفة فرسه الجليل بالوشي والذهب والناس ينظرون اليه ويعجبون منه وهو لا يلتفت كبراً وجلالة . وكان الرشيد نفسه اذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة والموائد من الخبز الباني والمطارج من الدياتج المطرز^(٥) والمحوري يرفلن بالوشي والحرير

(١) المستطرف ١ * ٦٨ (٢) المعودي ٢ * ٤٠٢ (٣) اغاني ٦ * ٧٨

(٤) المعودي ٢ * ٢٢٧ (٥) الاطبيدي

ومحرقين الندى والصندل والعود ويغنيون له على ضرب العود ويستقبلونه بالترواح
التي لا يدري ما هي لطيبها خيل له أنه في الجنة بين الجمال والجوهر والطيب
وقد انتهى ترف شيابهم الى الغاية التي لا وراء بعدها من الاسراف رأيتهم
يتخذون الابرجوارتهم من الذهب ويصيغون المسامير التي يدقونها في مجالسهم
لتعليق المناديل^(١) من الذهب ايضاً ويتخذون مؤائدهم من العرعر والذهب
منزل فيها برسوم تحبير الابصار والبصائر. ورأيت عند جعفر اعتر الله ملكة دواة
من ذهب غطاؤها تولوة سنة لا تقوم بثمان. ووجدت مجالس الطرب عندهم
أجل منها دور الرشيد واجمع لمعدات اللهلوان لهم الغواني اللواتي ليس مثلهن
في البلاد ولا سباً فوز^(٢) وفريدة^(٣) ومئة^(٤) وهن اشهر النساء غناء واحسنهن
ضرباً بعود. وقد كان الغناء قبل البرامكة لا يعلم في دور الامراء الا للصفر
والسود^(٥) فأحبوا ان يعلموه للقياني المحسان^(٦) ليزيد جمال صورتهن في حسن
الغناء وتأثيره في النفوس فبعوا^(٧) في منازلهم اكثر من مئة جارية يغنين احسن
الغناء. واذا زارهم الرشيد في بعض ايام لموه اخرجوهن له الى البستان فاصطففن
امامه مثل العساكر على صفين وغنيت وضربن على العيdan وتقرن على الدفوف
الى ان طلع الى مقاصير القصر فأحسبه في نفسي يحسدهم على اتساع نعمتهم ولكن
ليس له الا ان يصبر على ذلك لانهم يؤيدون دولته ويرفعون منار الاسلام
باستفعال ملكهم الى هذه الغاية

(١) ابن خلكان ١ * ٢١٤ (٢) اغاني ١٥ * ١٤١

(٣) اغاني ٤ * ٨٧ (٤) اغاني ٥ * ٩ (٥) اغاني ٥ * ١٤ و ١٧ (٦) اغاني

١٤١ * ١٥